ضيّفت مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون ضمن فعالية نحاور فيلسوف العمارة د.رفعة الجادرجي للحديث عن فن العمارة، والاجابة على اسئلة الاعلاميين، الذين اكتظت بهم قاعة المحاضرة، وفي بداية المحاضرة رحبت د.سلوى زكو باسم مؤسسة المدى، بالجادرجي قائلة: نرحب بالدكتور رفعة الجادرجي في المدى، والذي يمثل علامة بارزة من علامات العمارة في العراق، وان من يصنع العراق، هم من امثال الجادرجي، وقيل عنه المعلْم، وهو ارقى لقب يطلق عليه، ونرحب به ثانية.

رفعة الجادرجي : المعمار الحديث يجب ان يفهم العلاقة مابين المكننة والحرفة

متابعة: محمود النمر.. مؤيد عبد الوهاب
تصوير: سعد الله الخالدي

وفي كلمة قصيرة قال سكرتير تحرير المدى شاكر الانباري: اصبوحتنا هذا اليوم، مع المعماري رفعة الجادرجي، وهو غني عن التعريف، وتعرفه اعماله ذات الطابع الغريب والمميز، والموجودة في بغداد، وقرأت له كتابين احدهما يتحدث فيه عن والده كامل الجادرجي، سحرني في تناوله لسيرته، والثاني تجربته في السجن لقد اكتشفت جانبا آخر فيه، فضلا عن جوانبه الفنية والمعمارية.

ثم تحدث بعد ذلك الجادرجي قائلا:

بعد غياب طويل عن بغداد انا سعيد جدا ان ارجع اليها لكنني تألمت كثيرا وانا اجد بغداد في هذه الحالة من التخريب، والتخريب الى درجة الحيرة، وممكن ان نصف التخريب انه لا يوجد رصيف لمسافة خمسة امتار صالح وهذا دلالة على عجز المجتمع بكامله ان يحافظ على بيئة تؤمن له معيشة محترمة، وهو خلل في سايكولوجية المجتمع وخلل اعتقد سببه انهيار الدولة لمدة طويلة والذي اتمناه وفي الوقت الحاضر هو انشاء دولة تدريجية يساهم فيها ليس فقط الاحزاب، بل المجتمع المدني بمختلف صيغه، وحينما كان الساسة والاحزاب والحكومة تقود وتؤلف السياسة العامة للبلد كان يفترض ان تكون قاعدة السياسة. المجتمع المدني وبسبب انفصال الدولة عن المجتمع بالتدريج نرى هذه النتائج الان في كل شارع وفي كل عمارة وفي كل منظمة في العراق.

الان يتمكن المجتمع ويتجاوز هذه المرحلة من تاريخه، فالعراق ليس اول مرة يتعرض لمثل هذه الهزات الحضارية والمعرفية لانه بلد واسع والمدن مركزة في مناطق معينة وهناك الريف الواسع بين مدة واخرى يهجم على المدينة ويحطم الحضارة ويباشر في بناء حضارة جديدة وهناك اطراف في العراق تتعرض الى غزوات كثيرة، إذا العراق لم يستقر منذ العهد السومري.

في الوقت الحاضر بسبب التقدم الحضاري العولمي هناك مستويات بين المدينة والريف ومستويات بين العراق وجيرانه، لكي يتمكن الشعب العراقي ان يؤمن لنفسه، حياة ليست امنة وسعيدة فقط.

ثم توالت اسئلة الاعلاميين وكان أولهم علي الخالدي من قناة العراقية، الذي سأل:

هل وصول المعماري الكبير رفعة الجادرجي لاجل اعادة هيكلة بغداد، أي خلق شكل جديد لبغداد؟

-الجادرجي: العمارة الجيدة والابتكار من قبل الفرد لا يحصل بسبب قدرات الفرد المعينة وانما هناك امتداد في المجتمع الذي يؤلف الخلفية للفرد فاذا لا يوجد تجاوب بين الفرد والمجتمع لا يمكن للمبتكر ان يحدث او يبتكر الشيء الجيد حسب التطورات المعرفية الجديدة في مفهوم المجتمع وسايكلوجيته، الفرد المبتكر يؤلف جزءاً صغيراً من المجتمع يختلف العلماء في تقدير هذا الجزء بين ١٠٪ الى ١٢٪ من المجتمع الاخر هو المبتكر والمصلح وكلاهما لا يتمكن من تحقيق ابتكاره ان كانت الاساءة والاصلاح الا اذا كان هناك تجاوب مع الخلفية العامة للمجتمع، فالشخص المبتكر العراقي او الاجنبي لا يتمكن من احداث شيء جيد ما لم يكن هنالك تفاعل وتجاوب بين الفرد والجماعة، فالقضية ليست قضية استيراد او رجوع فرد معين وانما قضية تهيئة (الكلجر) العام لاستيعاب ما يقدم هذا الشخص.. وانا استعملت كلمة (كلجر) مثل ما استعملت كلمة جغرافية، وبدأت كلمات كثيرة تستخدم في الصحف والكتب اؤكد على كلمة (كلجر) لان هناك حدثت ترجمة لهذه الكلمة في الماضي وشوهت المعنى.. وهذا في الجرائد والكتب الاكاديمية ترجمتها ثقافة، لكن الثقافة لا تعني (الكلجر) ابداً، الثقافة هي المعرفة الرفيعة والعمل المهذب، بمعنى التهذيب، بينما (الكلجر) تستخدم بمعنى ثقافة القضاء العادل لكن لا يمكن ان نقول ثقافة البغاء والسرقة، (الكلجر) تعطي معنى للاثنين، فاذا كانت ممارسة المجتمع جيدة او غير جيدة ممكن ان نطلق عليها (كلجر) وهي عبارة عن عدة مفاهيم تقود سلوكيات المجتمع، ولكل مجتمع هناك مئات وآلاف من (الكلجر) مثل كلجر السرقة وكلجر البغاء وكلجر الاستقامة وكلجر العدالة وغيرها وهذه تؤلف شبكة، والشبكة هذه تبنى عليها ايديولوجية المجتمع، وهنا علينا ان نفهم هذه العلاقة التي تحدد علاقة الفرد بالمجتمع.

موفق مكي من جريدة الصباح سأل قائلا:

هناك اشكالية كبيرة في تحديد الهوية المعمارية او الفنية، فهل الإرث الجاهز هو ملامح الهوية؟

-الجادرجي: هذا السؤال جدا مهم وهو يتألف من اهم الهموم في العالم العربي والعراقي، وللاجابة سوف اختزل الاجابة واشير الى بعض النقاط.. اولا: التراث الاسلامي الصيني والصيني والاوروبي والهندي في أي مكان في العالم، التراث القديم بني على مقومين، المقوم الاول هو الحرفة.. والحرفة نقصد بها، التفاعل المباشر ما بين العقل وخصائص المادة.. ان كان عمل النجار او الحداد، او الطابوق الى اخره وهناك علاقة ما يصطلح عليه

(السبريانية) التي هي تفاعل مباشر بين العقل وبين متطلبات المادة.. عدم فهم هذه النقطة هو عدم فهم ماهو التراث.. التراث مبني على تكنولوجية للتفاعل ما بين العقل وخصائص المادة.. تفاعل مباشر..يعني اذا انا اخذت خشبة ومنشار فهناك تفاعل ما بين حركة يدي في المنشار والخشبة فكل حركة هنا ما بين العقل وخصائص المادة، جميع التراث العالمي مبني على هذه العلاقة (السبريانية) في تفاعل مع هذا هناك ايديولوجية المجتمع والمهم ان ما يخلق الشكل والمعمار العلاقة (السبريانية).

بابتكار المصنعات وشكلها والتعامل معها ومع الوقت تؤلف هذه الاشكال من مقومات هوية المجتمع لأن المجتمع يتعامل معها وهي تمثل حسية المجتمع وكيفية التعامل مع المادة هذه النقطة جداً مهمة ان نفهمها بعد مرور الحضارات بعدة مراحل وصلنا الى نهاية القرن الثامن عشر في ذلك الوقت ابتكرت اوروبا المكننة واهمية هذا الشيء هو المكننة مخالفة جذرياً عن الحركة (السريانية) التي وصفتها أي ان قص قطعة الخشب في المنشار الكهربائي هنا العقل بوجه الماكنة وليس يقوم بتفاعل مباشر مع خصائص المادة، نظم هذا القص العقل خارج العملية من قبل معامل مسبقة فهناك فرق جذري واساسي بين الانتاج التقليدي الحرفي والانتاج الحديث بمعنى ان التراث والحرفة مرحلة من تاريخ البشرية انتهت الى الابد، لانتمكن الان من اهمال المكننة والرجوع الى العمل اليدوي فالمعمار الحديث والفكر الحديث يجب ان يفهم العلاقة ما بين الاثنين ويتعامل مع المكننة ويسخرها السؤال الثاني الذي تقصده انت انما كيف نتعامل مع التراث القائم الاشكال التقليدية الاشكال الاسلامية والعباسية والتراث القائم في بيوتنا بالنسبة للاثاث وهذه كلها معالم شكلية انبنت على الحرفة كيف ندخلها بالتراث وهذا السؤال الحقيقة الذي اريد ان الجواب عليه هناك طريقتان طريقة ان تأخذ المعالم وتعيد صياغتها بطريقة ممكنة وانا اعتقد هذه الطريقة غير امينة بالنسبة للحرفة وغير امينة بالنسبة للحداثة، والطريقة الاخرى الكثير من الفنانين اتبعها، انا شخصياً منذ ان بدأت الممارسة قررت البديل لهذه العملية، اولاً ليس هناك فصل للحداثة والاشكال التقليدية ، التكنولوجيا هي الاساس والايديولوجية تتبع التكنولوجيا والحرفي ابتكر الشكل وثم تأتي الايديولوجيا ، فدائماً العمل في المعمل في المفكر المبدع للايديولوجية ، بعد العمارة الاسلامية هل الدين اتي بها كلا وقبة الصخرة هناك من استدعى الحرفيين لبنائها وهناك حرفيون عمل النقش الاسلامي بعد ما صار النقش الايديولوجية الاسلامية فكيف معالجة هذه المشكلة في الحداثة والوقوف نحو التراث والمعالم لا اسمح ان تهيمن على عقلي وانما انا كفرد مبدع انتقي ما اشتهي بشرط ان تتوافق مع السايكولوجية الحديثة وهذا الموقف يختلف تماماً عن الموقف الاول واشكالية هذا الموقف ان لاتوجد لدينا تجربة سابقة للرجوع اليها وبكل سهولة ممكن ان نخطئ وانا والناس الذين اخطأوا وهذا شيء طبيعي غير ان الاستقرار في الحداثة يدل على تطور متسارع بسبب انطلاقة حرية الفكر فهناك فكر حر يبتكر وهناك تكنولوجيا حرة في تطورها وهذه المقومات الاثنين يحدث فيها التطور، الفنان والمعماري يجد نفسه امام تطورات سريعة وليس بسهولة ان يستوعبها لتؤلف له قاعدة لكي ينتقل من مرحلة الى مرحلة اخرى ، لهذا نجد في الحداثة، غالباً ما نعود الى مئة ستة نجد طابعاً انسانيا وحسيا والسبب ان التطور اخذ مئات من السنين لهذه العمارة التقليدية وتجريدية من مرحلة الى مرحلة اخرى او في كل حالاتها الجيدة بينما الحداثة تتطور بشكل سريع جداً واخطاؤها كثيرة جداً على المجتمع يهيئ شبكة (كلجرية) لتدعم المفكر وانها لا تنبني الا اذا كان المجتمع متهيئاً حسب النظريات الجديدة لايمكن تهيئة ذلك المجتمع ما لم يتهيأ ذلك المجتمع في المدرسة او في الروضة من عمر السنة الواحدة الى العشر سنوات.. التربية تحدث في هذا الوقت التعليم في الابتدائية هو الاساس في تقدم حضارة ذلك المجتمع نحن في مجتمع ما زال تقليدياً حتى الان لم نتمكن من استخدام المكننة بشكل صحيح... الحرب تخرب وعلينا بناء شبكة اجتماعية تهيئ للمعمار ارضية يعمل من خلالها..

نحتج الى وقت لتعليم كيفية استخدام هذه المكننة بشكل صحيح.

■ كيف نستطيع الغاء الفجوة ما بين الفنان او المبتكر والمجتمع والتي هي فجوة غير طبيعية؟

– كيف الفنان لا يتمكن من اداء جيد اذا كانت هناك فجوة وعندما تتوسع هذه الفجوة يعجز الفنان عن العمل فوظيفة التعليم والمنظمات هي تقليل هذه الفجوة وما هذه الندوات الا نوع من الغاء هذه الفجوات ونؤكد حرية تكوين الطفل هي اساس تكوين المجتمع.

■ العمارة بوصفها حاضنة تراث المعرفة كيف لها ان تستقيم او تتواءم مع الحالة المزمنة التي مازلنا نكابد اثارها المرة، وهي حالة القطيعة المعرفية.

– هناك قطيعة، ألغت القطيعة بإستثمار المجتمع في اداء جيد، من يبتكر القطيعة، المجتمع نفسه القطيعة لا تأتي من المريخ، نحن خلقناها أنا اعتقد ان هناك نظريتين النظرية الاول تقول السلطات الخارجية والاستعمار هي التي تسيطر على المجتمع المحلي وتكسبه وانا اعتقد بقدر ما يكون المجتمع واع لنفسه يعرف كيف يتفاعل مع الظروف الخارجية والبرهان على هذا، اليابان ضربت بقنبلتين ذريتين، زرت اليابان في الستينيات والسبعينيات رأيت النهضة المعمارية فيها طفرة هائلة في مختلف مجالات الفنون، لم تكن بمساعدة الاجنبي، و كانت قوى خارجية وعالمية هي التي حطمت ذلك البلد، لهذا لم يبكوا ويدعوا انهم حطمونا بل باشروا مباشرة بالعمل بعد ان تحطمت الصناعة اليابانية. والالمانية بعد الحرب العالمية الثانية لم يتمكن هذان البلدان من تأسيس صناعة ضخمة كبيرة مباشرة بعد الحرب وبدلاً من ان يبقوا عاجزين، باشرت اليابان في عمل صناعة صغيرة وصناعات الكترونية صغيرة، وصناعة موتوسكلات الى صناعة سيارات وسيطرت على العالم بالنتيجة ونفس الشيء على المانيا فاذا نحن اردنا النهوض على تهيئة شبكة .

■ هل تريد صياغة كلمة معينة بالنسبة الى كلمة كلجر؟

– علمياً كلمة كلجر تستخدم في الحالتين السيئة والجيدة، فالكلجر هي عملية قيادة سلوكيات الفرد والمجتمع ان كانت قيادة سيئة او صالحة واستخدام كلمة الثقافة خطأ انما الصحيح هو استخدام كلمة كلجر ومن الضروري التفريق بين الثقافة والكلجر.

عملت في الحرف الكثيرة ومن حسن حظي انني تعينت في وزارة الاوقاف وتعاملت مع الحرفة الجميلة ومع ذلك درست فنون الحرفة في اوروبا، ولقد اطلعت على كثير من المعالم في اوروبا لهذا سخرت التراث لاخضاعه للمعمار ان المكننة في العمران هو اخذ المعالم من التراث واخضاعها الى التكنلوجيا، العمارة الحديثة بدأت تنتشر في كل العالم ومتشابهة وهذا جزء من العولمة لهذا نستخدم بعضاً من التراث ونحافظ على هويتنا.